د. أحمد كمال أبو المجد

الإعلام المصرى وحرب أكتوبر

obeikandl.com

obeikandl.com

لم تعد أهمية دور الإعلام فى الحياة المعاصرة محتاجة إلى مقدمات طويلة لشرحها أو إثباتها . يستوى فى هذا أن يكون الحديث خاصًا بالإعلام داخل الدولة أو الإعلام الموجّه إلى العالم الخارجى . وقد أصبح التسليم بهذا الدور أكثر شيوعاً – وأكثر منطقية فى الوقت نفسه – فى دول العالم الثالث التى يلعب الجهاز الإعلامى فيها دورًا خاصًا فى عملية « بناء الأمة » والتغيير الحضارى الشامل للوصول إلى مستوى يليق بالعصر الذى نعيش فيه إلى جانب دول وشعوب بلغت مستوى متقدماً ومتزايداً فى تقدمه بسرعة هائلة يكون فيها التوقف استمراراً للتخلف ، ويكون فيها التقدم بمعدلات أقل إبقاء عليه .

غير أن هناك عاملا آخر يزيد من أهمية الإعلام ودوره فى هذه المرحلة التاريخية ، نعنى به ما أصبح معروفًا فى دراسات الرأى العام باسم « فجوة التصديق » ، وهو تعبير يشير إلى وجود هوّة بين السلطة السياسية بكل ما تمثله أو ما يرتبط بها من أجهزة ومؤسسات وبين المواطن العادى . وقد شهدنا تطبيقات معاصرة لهذا فى حالات مختلفة سواء فى العالم الخارجى أو على المستوى العربى أو حتى داخل مصر نفسها فى ظروف معينة .

إن الإعلام بطبيعته لا يخلق شيئاً من العدم ، وإنما هو يسعى أساساً لنشر حقائق قائمة أو توضيح أمور يكتنفها الغموض أو اللبس بهدف تحقيق أى من الغايات التالية أو تحقيقها كلها – فى التصور الأمثل وهى :

١ – تثبيت مواقف أو اتجاهات موجودة بالفعل .

٢ – المساعدة فى تحويل مواقف واتجاهات مترددة أو غير ثابتة إلى مواقف واتجاهات ثابتة .

٣ – حصر المواقف والاتجاهات المعادية الشديدة التطرف منعاً لانتشارها وتوسعها على حساب المواقف الثابتة .

وفى كل هذه المجالات لا يمارس الجهاز الإعلامى وظيفته فى فراغ ، ولكنه يؤديها فى إطار أشمل يضمّ مؤسسات وتقاليد مختلفة ، ويرتبط بفلسفة معينة للعمل تحكم هذه المؤسسات ككل وتضبط ممارساته هو أيضاً . وبعبارة أخرى فإن الجهاز الإعلامى جزء من كلّ هو النظام السياسى والاجتماعى بكل مقوماته وظروفه وطبيعة العلاقة السائدة فيه – فى لحظة معينة – بين الدولة ومؤسساتها وبين الأفراد والشعب فى مجموعه . فإذا حدث خلل فى أى من هذه العلاقات ينشأ موقف يتسم باهتزاز الثقة ، وقد يتطور هذا الموقف عبر فترة من الزمن إلى « أزمة ثقة » أو « فجوة تصديق » أى إلى حالة عامة غالبة ، يكون ردّ الفعل الأول أو الغالب فى ظلها إزاء كل ما يصدر عن الدولة ومؤسساتها من بيانات أو معلومات أو وعود هو الشك أو التحفظ أو التردد فى التصديق .

والتعامل السليم مع فجوة التصديق هذه يجب أن يكون تعاملا علمياً ، بمعنى أنه يسلم بوجودها إن وجدت ، وأن يحدد العوامل والسمات والعلاقات التى تؤدى إلى وجودها ، وأن تكون هذه المعرفة بعد ذلك مدخلا لحركة متكاملة مدروسة تستهدف تفادى وصول الأمور إلى هذا الوضع أو معالجتها والقضاء عليها إذا استفحلت . ولابد أن نملك القدرة والشجاعة على مكاشفة النفس بأننا قد واجهنا مثل هذا الموقف فى مصر عقب حرب ١٩٦٧ ، إلا أن كلمات الآخرين وشهادة المراقبين الإسرائيليين أنفسهم تدلّ قبل أى شىء آخر على أننا قد استفدنا من الدرس ،

وأننا نسير فى الطريق الصحيح . وسنعود إلى تفصيل هذه النقطة الهامة فيما بعد .

ثم يبقى أن نسجل – فى بداية معالجتنا هذا الموضوع الهام – أن حرب أكتوبر كانت بداية الاختبار الحقيقى لجيش مصر وشعبها وللأمة العربية كلها ، وأننا قد اجتزنا الاختبار بنجاح فاق تصورات كل من لم يعرفوا طاقات هذا الشعب وجيشه وأمته العربية . ولم يكن الإعلام المصرى استثناء من هذا كله ، فقد شهدت حرب أكتوبر بالفعل أسلوباً إعلامياً جديداً أسهم قبل الحرب فى الحشد وفى تعبئة الشعب من جانب ، والتمويه على العدو من جانب آخر ؛ وأسهم خلال الحرب فى طرح الحجم الحقيقى للإنجازات العربية دون مبالغة أو تهويل ؛ وأسهم بعد الحرب فى عرض الأبعاد الموضوعية كافة للموقف ولتحركنا السياسى من أجل السلام دون مزايدة أو صراخ .

والآن لنتحدث بقدر من الإيجاز عن الماضى والحاضر والمستقبل .

أولا – دور الإعلام المصرى قبل أكتوبر :

ليس من المعقول فى شيء القول إن السجل الإعلامى العربى قبل أكتوبر ١٩٧٣ كان حالك السواد ، وإنه كان كذلك فى كل المواضع والمجالات والمراحل . فمثل هذا الزعم يتجنى على الحقيقة القائمة ، ويتجاهل جهوداً كثيرة قدمها أناس مجدون وشرفاء بذلوا فيها غاية ما يستطيعون وما أهلوا للقيام به أو ما مكنوا من إنجازه .

هناك على سبيل المثال حرب ١٩٥٦ ، وقد نجح الإعلام المصرى خلالها فى القيام بدور عظيم ، حيث ساهم بأوفر نصيب فى عملية التعبئة فى ظل ما يكاد يكون غيبة تنظيم سياسى جماهيرى يفترض فيه أن يتولى القيام بهذا الدور . وكانت أجهزة الإعلام المصرية حينئذ وسيلة جيدة التوصيل لتوجيهات القيادة السياسية بصدد عملية حشد الموارد البشرية والمادية ، كما كانت قناة ربطت مصر المستهدفة للعدوان بشقيقاتها العربيات ، إلا أنها لم تكن الرباط الوحيد فى هذا ؛ وأخيراً كانت أداة نقل مستمرة وفعّالة لرسالة إعلامية لشعوب العالم كله ودوله الكبرى والصغرى دون استثناء ، قوامها أن مصر مستهدفة للعدوان ، ولكن شعبها يقاوم

بشجاعةٍ وإصرار صاحب الحق وصاحب الأرض .

غير أنه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الصورة أيضاً لم تكن – من الناحية الإعلامية – ناصعة البياض ، وأن توصيف الواقع دائماً على أنه « حالك السواد » أو « ناصع البياض » وقوع فى ازدواجية سقيمة ، فإلى جانب الإنجاز الإعلامى عام ١٩٥٦ كانت هناك مشاكل عديدة وقصور فى صورة الإعلام قبل حرب أكتوبر . وليس هذا مجالا مناسباً لتناول هذه المشاكل بالتفصيل الذى تستحقه ، ولكن يكفى أن نشير إلى بعضها ، ومنه حداثة دخول الجانب العربى عامة إلى الحقل الإعلامى بمعناه التخصصى ، كوظيفة مستقلة لها تقاليدها وأصولها ، إلى جانب ندرة عدد المتخصصين فى هذا الحقل لدينا وفى دول العالم الثالث بشكل عام . ثم إن هناك أسباباً فنية بالمعنى الضيق للكلمة ، ونعنى بها تخلف الأدوات والأجهزة المتاحة أمام العاملين فى الحقل الإعلامى ؛ وأهم الأسباب – ولا شك – الأسباب السياسية ، ومنها عدم استقرار الخط السياسى فى بعض الموضوعات عبر أى فترة معقولة من الزمن ، وخضوعه حتى فى الزمن القصير لتقلبات حادّة ، وهو الأمر الذى يترتب عليه – بعد تكراره أكثر من مرة – فقدان الثقة فى الجهاز الإعلامى الذى ينقل للمواطنين مضمون هذه التقلبات ؛ ثم هناك أيضاً عدم اتساق مقومات الخط الإعلامى العربى ، فقد اعتاد العرب لفترة طويلة – وخاصة قبل أكتوبر ١٩٧٣ – أن يخاطبوا العالم بأكثر من منطق ، وأحياناً على نحو متناقض ، وهو الأمر الذى أوقع العالم الخارجى فى حيرة معنا . بل أوقع جماهيرنا بدورها فى هذه الحيرة : أيّنا يصدّقون ؟ أيّنا يمكنهم أن يتجاهلوا ما يصدر عنه باعتباره غير ممثل للموقف العربى ؟

ليس هذا – كما أشرنا من قبل – موضع معالجة تاريخية للدور الإعلام المصرى ، ولكننا نريد التركيز أساساً على الخبرة الماضية فقط فى الحدود التى تسمح لنا بتقييم الحاضر وبتصحيح أى خطأ فيه وبالتنبؤ بالمستقبل وبرسم ملامحه كما نريد على أفضل نحو ممكن التنفيذ . وهذا ما يعود بنا إلى عام ١٩٦٧ .

لقد كانت المواجهة العربية الإسرائيلية الرابعة فى ذلك العام ، ومنذ نهاية المعارك العسكرية ، والتحقق الجماهيرى من وقوع الهزيمة ، بدايةً من الناحية الإعلامية لوضوح « أزمة التصديق » وتضخمها ، حتى لقد اعتاد بعضنا أن يستمعوا إلى أخبار وطنهم من الإذاعات الأجنبية ، وبخاصة تلك التى يستطيع أى عاقل أن يدرك نوع واتجاه المادة التى تبثها ، وأدمن آخرون ممارسة « تعذيب الذات » و« القسوة على النفس » كردّ فعل لما أصابهم من إحباط وانعدام ثقة فيما يقال ومن تزايد الهوة بين ما يقال وما يفعل . وأمام هذا الميراث من ضعف الثقة واهتزازها كانت الأصوات المدركة حقيقة قدرات هذا الشعب توصف بأنها متفائلة أكثر مما ينبغى فى معظم الأحوال ؛ وبرغم هذا كان من اللازم أن ننطلق فى استعدادنا للمعركة وتعبئة إمكانياتنا ، لأن جلال القضية وإلحاحها على الضمائر والقلوب والعقول والأرزاق كان لا يحتمل أى تأجيل ، ولم يكن فى استطاعتنا الانتظار حتى نتخلص من أزمة التصديق لكى نخوض بعدها مواجهتنا ضد العدو . بل لقد أشار الرئيس محمد أنور السادات فى لقاءاته خلال النصف الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩٧٤ مع فئات مختلفة من قوى شعبنا العامل إلى أن الأوضاع الاقتصادية كانت أكثر حرجاً مما كان يبدو لأى مراقب خارجى مهما كان متشائماً .

ومن ناحية أخرى كان حرص الرئيس السادات على التعبئة النفسية للحرب وإلحاحه على حتمية النصر تعبيراً عن رؤيته الدقيقة التى ولدتها خبرة طويلة بهذا الشعب والطاقات الهائلة التى يختزنها . ومن ثم كان بث روح التفاؤل والثقة بالنصر ضرورة سياسية وإعلامية تستند إلى الرؤية الموضوعية ولا تتجاوز الواقع فى شىء .

أريد من كل ما سبق أن أؤكد أننا نبنى على تراث له إيجابياته وسلبياته ، وأن على من يريد محاسبة الجهاز الإعلامى أن يأخذ هذا فى اعتباره ، وأن يدرك أن السلبيات – وهى عديدة – تحتاج إلى كل العلمية وأعظم الخبرات وبعض الوقت وقدر من طول النفس للقضاء عليها أو على الأقل لتحييد آثارها . ومع هذا جاءت حرب أكتوبر والأداء الإعلامى الذى شهد به العدو قبل الصديق دليلاً جديداً على قدرة الإنسان المصرى العامل فى حقل الإعلام على تخطى الصعاب

والتعامل بنجاح مع الواقع فى ظل الإمكانيات المحدودة إذا توافرت الاتجاهات والمؤثرات السليمة والمستقرة فى العمل الوطنى المصرى .

ثانياً - الإعلام المصرى فى حرب أكتوبر :

لعل من الأفضل أن نبدأ تناولنا هذه النقطة بالإشارة إلى رأى الإسرائيليين فيها ، فهو رأى لا شبهة للتحيز فيه لمصلحة العرب ؛ وهنا يكفى أن نشير إلى ما جاء فى صحيفة دافار الإسرائيلية بتاريخ ١٩٧٣/١٢/١٠ فى معرض تقييم الخبراء الإسرائيليين السيكلوجية والثقافة العربيتين حيث قال التعليق : « لقد استخفوا بالعرب ، وأحياناً ارتدى هذا الاستخفاف رداء علمياً . ماذا زعموا ؟ . إن العرب بسبب ثقافتهم الخاصة يتجاهلون الواقع ، ويقعون ضحية خيالهم ، وقدّموا أكثر من مرة إلى من طلب برهاناً على ذلك بلاغات الجيوش العربية فى حرب ١٩٤٨ وحرب الأيام الستة ، ولكن الحرب الأخيرة أثبتت أن هذا الادعاء ليس صحيحاً دائماً . هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكرى المصرى دقيقة للغاية » . أما عن الوضع على الجانب الإسرائيلى فيكفى مطالعة عدد صحيفة معاريف الإسرائيلية يوم ١٩٧٤/٥/٢ والذى جاء فيه أن الإذاعة والتليفزيون فى إسرائيل لم يكونا على درجة مناسبة من الاستعداد للعمل فى أثناء الحرب ، سواء من حيث البرامج ، أو من ناحية القوى البشرية ، أو مستوى استعداد الأجهزة العاملة ، أو من حيث تنسيق استخدام المواد المتاحة بالأقسام المختلفة فى الإذاعة والتليفزيون .

وهكذا نجد أن الدروس المستفادة من الأداء الإعلامى المصرى خلال حرب أكتوبر هى فى جوهرها العوامل التى جعلت هذا الأداء ممكناً وأهمها :

١ - **المصارحة ومكاشفة الجماهير بالحقائق** : لقد أثبتت التجربة دائماً أن إخفاء الحقائق عن الشعب أمر وخيم العواقب من نواح كثيرة ، ذلك أنه من ناحية تجاهل لحق الشعب فى المشاركة والمعرفة ، ولأنه من ناحية أخرى يؤدى إلى إضعاف مستوى تعبئة الشعب واستعداده لمواجهة التحديات المختلفة . وقد كانت المصارحة هى الخط العام للأداء الإعلامى خلال حرب أكتوبر على نحو رأينا

أن العدو قبل الصديق قد اعترف به . إن منطق المصارحة ليس مجرد فلسفة ، ولكنه فلسفة سياسية وتربوية بأوسع معانى الكلمة ، لأنه تجسيد للإيمان بأن شعبنا هو صاحب القضية ، وبالتالى صاحب الحق الكامل فى الإلمام بتطوراتها كافة ؛ وفى هذا الإطار جاء قرار السيد الرئيس برفع الرقابة على الصحف لضمان ممارستها كامل وظائفها الإعلامية دون قيود سواء من حيث حرية التعبير فيما يتعلق بالحاضر أو من حيث استشراف ملامح المستقبل لمصر والأمة العربية . إن هذا القرار فى حقيقته ليس قراراً إعلاميًا ، ولكنه قرار سياسى يكشف عن الإيمان بالشعب والثقة فيه والإيمان بأن الحرية هى الباب لمعرفة الحقائق وبناء السياسات على أساس صلب من التفاعل مع الواقع بكل ما فيه .

٢ – **رفض الازدواجية** : وكامتداد طبيعى للعنصر الأول يأتى منطق رفض الازدواجية الإعلامية . وقد كان من أهم مقومات النجاح الإعلامى فى أكتوبر تجنب مخاطبة الشعب فى الداخل بلسان ومنطق ، ومخاطبة العالم الخارجى بلسان ومنطق آخر ؛ وانطلاقاً من هذا يركز خطنا الإعلامى الآن على الحديث بلسان واحد ومنطق واحد بغير ثنائية أيًا كان الغرض منها ؛ ذلك أن الثنائية أو الازدواجية هى فى أحسن الأحوال مظهر لقصر النظر . ويستتر خلف هذا الخط – خط رفض الازدواج – إيمان قوىّ بوعى هذا الشعب الذى خاض التحديات وقدم التضحيات ، والذى أسفر فى كل المناسبات عن درجة هائلة من الوعى وإدراك ثاقب البصيرة لمرامى كل خطوة وأهداف كل تحرك وتفهم لماهية الهدف الاستراتيجى وما هى الخطوات والأدوات اللازمة للوصول إليه .

٣ – **رفض المهاترات** : قبل أكتوبر ١٩٧٣ واجهت السياسة المصرية حملات متتالية ومكثفة من التشكيك من جانب جبهات متعددة ، وتركزت هذه الحملات فى الادعاء بأن مصر غير عازمة على القتال أو غير قادرة عليه . وقد جاءت شرارة أكتوبر وتركت هذه الدعوى التى ارتكزت عليها حملات التشكيك مهلهلة ضعيفة ، وبرغم ذلك فإن مصر فى تصدّيها لحملات التشكيك لم تلجأ لتبنى أساليب من وجهوا إليها هذه الحملات ، ولم تستخدم التجريح والسباب والشتائم والتشهير ، وإنما

اكتفت بالعمل والحركة الإيجابية ، ورفضت منطق المهاترات والمزايدات . وكان توجيه الرئيس السادات المتكرر لأجهزة الإعلام أن تلتزم الموضوعية والهدوء ، وأن تبتعد عن المبالغات وحروب الشعارات . ولا يزال خطنا الإعلامى بعد أكتوبر مستمرًا فى الالتزام بتجنب المهاترات ، والحرص على التضامن العربى ، وعلى إقامة أفضل العلاقات مع جميع القوى الدولية ، فى ظل مراعاة كاملة ومتبادلة لمقتضيات مفهوم الحوار مع من يختلف معنا ، ومع عدم اشتراط التطابق فى الآراء مع من يشاركنا الرأى فى موضوعات بعينها . وهذا الأمر على مستوى العمل الإعلامى ، والتزام أجهزة الإعلام المصرية به هو فى الواقع مساهمة فى إرساء قيمة مسئولية الكلمة دون التعدى على حريتها .

ثالثا مهام المستقبل :

إن هذه القيم التى جعلت من إنجاز الإعلام المصرى فى أكتوبر حقيقة ممكنة التحقيق يمكن أن تكون منطلقاً لإنجاز مهام المرحلة القادمة .

والإعلام لن يقوم فى المستقبل – وفقاً لأى تصور علمى – بدور منفرد ، بل إن دوره يتحدد فى إطار الاستراتيجية الحضارية الشاملة التى طرحتها ورقة أكتوبر ، ولتنفيذ المهام التى حددتها الورقة والتى نالت موافقة وتأييد جماهير الشعب ، وقد تضمنت المهام تأكيداً على ضرورة التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومحو الأمية ، والقضاء على الهوة بين الريف والمدينة ، وتحرير المرأة ، وبناء الإنسان الجديد الذى هو هدف التنمية ووسيلتها وضمانها . وأعتقد أنه لا خلاف على وجود دور كبير لأدوات الإعلام فى هذا كله بالتنسيق الكامل مع الأجهزة والمؤسسات الأخرى التنفيذية والسياسية حتى تأتى الأدوار مكملة بعضها بعضا وليست جهودًا منفصلة الحلقات تسهل بعثرتها فى الهواء .

إن مجرد اختفاء ظاهرة الأمية يعنى مزيداً من مراكز البحث العلمى وقلاع التقدم الاقتصادى ، ومزيدًا من مشاركة المرأة فى الحياة العامة بفاعلية ، وأجيالا جديدة تحمل الراية وهى مؤهلة بالعلم والمعرفة والخبرة . والإعلام المصرى لابد

أن يشارك فى هذا كله ، وفى خلق الإنسان القادر على إنجاز هذه المهام جميعها . ثم الارتفاع إلى مستوى اهتماماته ؛ ويترتب على هذا ضرورة الارتفاع بمستوى المادة الثقافية ومزيد من الاهتمام بالأقاليم فى الإعلام المكتوب بصفة خاصة ، وهكذا فإن أى تفكير فى مهام المستقبل بالنسبة لأدوات الإعلام لابد أن يأخذ فى الاعتبار مستوى المخاطب وطبيعة العصر .

وإذا تركنا هذا المستقبل ، وتحدثنا عن المستقبل القريب ، فإن لأدوات الإعلام المصرية دورها الأكيد فى إعداد الشعب لمواجهة مقتضيات المرحلة التى يمر بها نضالنا الوطنى الآن ، وهى مرحلة صعبة يقترن فيها استكمال مهمة التحرير مع مهمة التعمير إلى جانب الإعداد للتنمية الشاملة .

والضمان الأكيد لنجاح الإعلام فى هذه المهمة هو محافظته الكاملة على السمات الإيجابية التى حققها مع انتصارات أكتوبر . موضوعية ودقة فى تصوير الواقع ، وتجنب لازدواجية اللغة فى مخاطبة الجماهير . . واستفادة بكل ما توصل إليه علم الاتصال من فنون مخاطبة الإنسان وتوجيهه ودفعه لتحقيق أهدافه . . .